التواضع: الفضيلة والطريق...

مَن يتصفّح كتاب أقوال الشيوخ، حِكَم آباء البرّيّة° ، لا بدّ له أن يتوقّف على فضيلة خبرها أبناء هذا الشرق وعاشوها: إنّها فضيلة التواضع. إنّها في العمق، في الأساس، قبل كلّ الفروض والقِيَم والأعمال والتصرّفات في الدين والزهد، في الدنيا والمعاملات، وبعدها. ألم يُعلن الشيخ الناسك أنّه بها يتنصر من أجل الحياة؟

وإذا كان الغرب المعاصر، بتقديسه العلم والتطوّر والعقل والأنا، قد جعل من الذات البشريّة محورًا ومنطلقًا؛ وإذا كان بعض الشرق، قديمًا وحديثًا، قد اختار التعالي طريقًا، فإنّ الغرب والشرق يستعيدان اليوم الوعي للدلالة، عبر المَثَل القديم والتحليل الحديث، على أنّ فضيلة التواضع هي فضيلة واقعيّة، معاصرة، إنسانيّة، لها قيمتها في العلاقات البشريّة، وفي إنماء تلك العلاقات وجعلها خلاّقة، نقطة انطلاقة نحو الأعمق.

ولا شكّ في أنّ لفضيلة التواضع تاريخًا يحتوي على إذلال الذات، والتواضع الخاطئ، الذي يقضي بقهر النفس والجسد، ونسيان كلّ الطاقات والمَلَكات التي أعطيت الكائنَ البشريّ، إلى حدّ الانسحاق والامّحاء والتخلّي. في حين أنّ التواضع هو التوجّه الداخليّ إلى إثبات الذات في المكان (وذلك من معاني «وَضَع» الدلاليّة) الذي لا بدّ أن تكون

---

(٥) أقوال الشيوخ، حِكَم آباء البرّيّة، سلسلة «التراث الروحيّ»، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ، دار المشرق، ١٩٩٦.

فيه. التواضع هو ذلك البعد الوجدانيّ، ذلك الإدراك أنّ الإنسان موجود في حيِّز وحدود أمام الأفق الواسع الذي هو الوجود الناطقُ الكريمُ بجوده أبدًا. ذلك الإدراك الذي عبَّر ويعبِّر عنه العلماء الكبار أمام ما حقّقوه من صغير الإبداع وقليل الإنجاز، أمام عظمة مستور الكون وأسراره، وأمام المهمّات التي تنتظره كلّ يوم. ذلك الشعور الوجدانيّ بأنّ الإنسان الفرد في بُعْده الاجتماعيّ منغرس في الأرض، وبأنّه موضوع هنا في الأرض التي تحمله ويحملها.

التواضع هو الطريق. إنّه السهرُ على إنسانيّتنا لكي لا تضيع في التعالي، في الكبرياء، في أمواج اللامحدود، في حبّ المال، وتمجيد العظمة والتباهي.

التواضع هو الطريق إلى الآخر، إلى البشريّة فيه.

التواضع هو الطريق إلى العمل المشترك الذي يؤسّس لبناء اجتماعيّ متين.

لا بدّ منه في السياسة، في الفكر والثقافة والدين، في الكنيسة والجامع.

في التواضع نلتقي، لأنّنا ندرك هويّتنا.
كلام ليس من باب الوعظ الأخلاقيّ.

في هذا العدد من المشرق، إسهامات مختلفة تعبِّر عن الهموم والمعاناة، عن الاهتمام العلميّ من أجل العلم وفي سبيل التعريف بعالمنا المشرقيّ، في آثاره وجغرافيّته ومجتمعاته. فمن تأصُّل المسيحيّين في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، إلى مزامير لم تُكْتَب في لائحة مزامير داود، إلى علم اللاهوت واهتماماته، ثمّ المسكونيّة في أدبيّات البابا يوحنّا بولس الثاني، إلى إسلاميّات، إلى اللغة والجغرافيا والفنّ: اهتمامات مختلفة تعبِّر عن إرادة المساهمة في بناء مدماك الثقافة بوسعه الحقّ.